

إخوان الصفا بالبصرة^(١)

المستشرق الهولندي دي بور

١ - القرامطة

في بلاد الشرق، حيث كان لكل دين من السلطان ما يشبه سلطان دولة في داخل الدولة كانت الأحزاب السياسية تظهر دائماً في صورة فرق دينية، لتستعين بذلك على اجتلاب الأنصار، ومن أصول الدين الإسلامي أنه لا يميز إنساناً على آخر، ولا يقر نظام الطوائف أو الطبقات الاجتماعية، ولكن للعلم دائماً ما للثروة من أثر، وكان من أثر ذلك ظهور مراتب في التقوى ودرجات في المعرفة، بقدر ما كانت تسمح بذلك الجماعة أو الفرقة، فنشأت جماعات سرية تتألف من طبقات متفاوتة، وللعليا من هذه الطبقات أو ما دونها عقيدة سرية، كثير منها مقتبس من الفلسفة الطبيعية عند أصحاب المذهب الفيثاغورثي الجديد، وكانت هذه الجماعات ترمي إلى التغلب على السلطة السياسية، وفي سبيل هذه الغاية تذرعت بجميع الوسائل، وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلاً مجازياً.

نعم كانوا يريدون هذه الحكمة السرية إلى أنبياء ممن وردت أسماؤهم في التوراة أو في القرآن، ولكن أصولها مأخوذة من مذاهب الفلاسفة الوثنيين، ونجد أن الفلسفة قد انقلبت على أيدي إخوان الصفا إلى أحلام سياسية، وكان أهل النظر العقلي يرون أن العقول والنفوس العليا مسكنها الكواكب، وأنها تتجسد في الأدميين لتدبير سياستهم، فكانوا ينادون بأن مساعدة هذه العقول على إقامة دولة العدل على هذه الأرض من الواجبات الدينية، ونستطيع أن نقول إن الجماعات

(١). يسمون إخوان الصفاء، وخلص الوفاء وأهل العدل وأبناء الحمد وهم جماعة تألفت بالعشرة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، وذلك بالبصرة في القرن الرابع الهجري، وقد وضعوا لأنفسهم مذهباً وزعموا أن الشريعة دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، فأرادوا تطهيرها بالفلسفة، معتقدين أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال، لذلك ألفوا رسائلهم التي سيأتي وصفها، وكتبوا أسماءهم، وبثوا فيها من كل فن بلا إشباع ولا كفاية وفيها خرافات وكنائيات وتلفيقات وتزييفات وقارنوها بحس هذا ويحدث أنها تقمض من كل مذهب، وتمزج الدين بالفلسفة مزجاً غير سائغ، فالآيات والأحاديث تحشى بين العبارات الفلسفية حشواً ويستشهد فيه في غير موضعها غير أن لهذه الرسائل شأنها الفلسفي من حيث تعبيرها عن العصر الذي كتبت فيه، وأنها لعامة المثقفين، ولها شأنها التاريخي والأدبي، أرجع إلى ما كتب عن إخوان الصفا في دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مقدمة الدكتور طه حسين بك والمرحوم أحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفاء طبعة مصر ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.

التي تتكون على هذا النحو تشبه الجماعات التي كانت، حتى عهد مبادئ سنت سيمون^(١) وما إليها من ظواهر هذا القرن، تتألف عادة في البلاد التي يضيق فيها على حرية الفكر. كان عبد الله بن ميمون، رئيس فرقة القرامطة^(٢) مؤسساً لحركة من هذا الطراز في النصف الثاني من القرن التاسع (الثالث الهجري) كان فارسي الأصل وكان يشتغل بمعالجة العيون وتدريب على مذهب الفلاسفة الطبيعيين واستطاع أن يؤلف بين أهل الإيمان وبين الزنادقة، وأن يجعل منهم حزباً يعمل على قلب الدولة العباسية، وكان يحتال في اجتذاب البعض بإظهار الشعبذة والسحر والتخريق^(٣)، وفي اجتذاب البعض الآخر بإظهار الزهد والعبادة والعلم. كان علمه أبيض اللون، لأنه كان يزعم أن دينه دين النور الخالص الذي ستعرج النفوس إليه بعد مطافها على هذه الأرض، وكان يدعو إلى احتقار الجسد والاستهانة بالماديات، وإلى اشتراك جميع أعضاء الجمعية المتآخين في الخيرات، وإلى توضحية النفس في سبيل الجماعة، وإلى أن يكون الإنسان موالياً لرئيسه مطيعاً له حتى الموت، لأن تفاوت طبقات الجماعة يقتضي بهذا، وكانت مراتب الوجود عند هذه الجماعة هي: (الله فالعقل فالنفس فالمكان فالزمان) وطبقاً لهذه المراتب كانوا يتخيلون أن المظهر الإلهي لا يتجلى في الكون فقط، بل يتجلى أيضاً في نظام جماعتهم المتفاوتة المراتب.

(١). سنت سيمون إشتراكي فرنسي ولد بباريس عام ١٧٦٠م وتوفي بها عام ١٨٢٥ وهو مؤسس الإشتراكية الفرنسية، وأراؤه الأساسية هي عبارة عن معارضة للثورة الفرنسية ولنزعة نابليون الحربية كان سنت سيمون يريد أن يكون رؤساء الصناعة هم المسيطرون على المجتمع، وأن يخرج التوجيه الروحي للمجتمع من يد الكنيسة إلى يد رجال العلم، وأن تتفق الجماعة على إلغاء الحرب، وعلى التنظيم للعمل المنتج على أيدي أكفأ الرجال، وقد بحث مسألة الفقراء، وعنده أن الجماعة يجب أن تسعى كلها إلى تحسين حالة الطبقة الفقيرة من الوجهتين الخلقية والجسمية، وأن تنظم نفسها على الطريقة المثلى لتحقيق هذه الغاية.

وجاء بعد سنت سيمون أتباعه فنشروا مبادئه وصار لهم أنصار فأنشؤا جمعية ذات طبقات ثلاث وهي أشبه بأسرة واحدة تعيش من مصدر واحد، وكان لها شارة خاصة، دعت هذه الجمعية إلى إلغاء قانون الوراثة، وإلى ضم كل أدوات الصناعة وإسناد إدارتها للجماعة، بحيث تصبح هذه هي المالكة وتعهد لطوائف وموظفين بإدارة أملاكها وهم يصرون على حقوق الجدارة والاستحقاق، فيريدون مثلاً أن يسند لكل فرد من العمل ما يناسب كفاءته، وأن يكافأ بمقدار عمله ونظريتهم في الحكومة هي أن تكون ضريباً من الاستقراطية الروحية أو العلمية وقد نادى بتحرير المرأة ومساواتها مع الرجل مساواة مطلقة، والرجل والمرأة هما الشخص الاجتماعي وتربطهما صلة القيان بواجب الدين والدولة والأسرة وهم يحترمون قانون الزواج المسيحي وقد قضى على حركتهم حوالي ١٨٣٢.

(٢). هو عبد الله بن ميمون القذاح (المتوفي حوالي ٢٦١هـ) وأبوه يسمى أبا شاكور ميمون بن ديصان صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة وأصله من بلدة الأهواز وسمي عبد الله القذاح لأنه كان يعالج العيون ويقدها ومن أتباعه حمدان قرمط ومحمد بن الحسين، وقد أحدث القرامطة قلاقل وفتناً في نواح متعددة، راجع ما كتب عن عبد الله بن ميمون في دائرة المعارف الإسلامية وكذلك ما كتب عن القرامطة لثرى نشأتهم وانتشارهم وأراءهم انظر فهرس ابن النديم ص ١٨٦-١٨٨ والكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢١-٢٣ طبعة تورنبرج لندن ١٨٦٦.

(٣). كان يخبر بالأحداث الكائنة في البلاد الشاسعة مستعيناً بطيور أطلقها أعوانه منها، فيخبر من حضر فيتموه ذلك عليهم إلى غير ذلك من أنواع السحر والنارنجات.

٢ - إخوان الصفا ودائرة معارفهم الفلسفية

وكانت المراكز الكبرى للقرامطة في البصرة والكوفة، ونجد في البصرة في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي (الرابع من الهجرة) جماعة صغيرة من الرجال تتكون من أربع طبقات ولا نعرف على وجه اليقين مبلغ نجاح هؤلاء الإخوان في تحقيق المثل الأعلى الذي كانوا يرمون إليه من اجتماعهم والطبقة الأولى منهم شبان يتراوح بين خمسة عشر وثلاثين تنشأ نفوسهم على الفطرة، ونظراً لأنهم تلاميذ فواجب عليهم أن ينقادوا لأسادتهم انقياداً تاماً.

أما الطبقة الثانية فرجال بين الثلاثين والأربعين يتلقون الحكمة الدنيوية ويستفيدون معرفة تناسب هذه المرتبة والطبقة الثالثة أفراد سنهم بين الأربعين والخمسين وهم يعرفون الناموس الإلهي معرفة مطابقة لدرجتهم، وهذه هي طبقة الأنبياء حتى إذا نيف الرجل على الخمسين ارتقى إلى الطبقة العليا وصار يشهد حقائق الأشياء على ما هي عليه كالملائكة المقربين، وفي هذا المقام يكون فوق الطبعية والشرعية والناموس^(١).

وقد انتهى إلينا عن هؤلاء الإخوان رسائل هي أشبه أن تكون دائرة معارف مرتبة تضم علوم ذلك العصر وتدل على أنهم أصابوا من الرقي الفكري حظاً وافراً وتتألف هذه الدائرة من إحدى وخمسين رسالة (ربما كان يقصد في الأصل أن تكون خمسين)^(٢).

وموضوعاتها مختلفة في طبيعتها ومصادرها حتى أن الذين اشتركوا في تأليفها لم ينجحوا في إبرازها منسجمة انسجاماً تاماً، وبالإجمال ففي دائرة المعارف هاته غنوسية مأخوذة من مختلف المذاهب، وتقوم على دعائم مستمدة من العلم الطبيعي، ولها من وراء هذا أغراض سياسية وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر في الرياضيات وبالتلاعب بالأعداد والحروف وبعد ذلك تنتقل إلى المنطق والطبيعات فتد كل شيء إلى النفس وما لها من قوى، وتنتهي أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي خفي.

وجملة القول إنها مذهب جماعة مضطهدة، تبدو النزعات السياسية من جميع أجزائه ونرى من خلاله بعض ما عاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من كفاح، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم، وتبين منه ما كان يختلج في نفوسهم من أمل، وما تواصلوا به من الصبر وهم يلتزمون في هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم، أو تطهيراً لها وهذه الفلسفة هي دينهم وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى الموت لاعتقادهم أن ملاقة الموت في سبيل صلاح الإخوان هي الجهاد الصحيح، وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربه الله لطواف الإنسان على هذه الأرض^(٣)، فأوجبوا على الإنسان أن يساعد أخاه في هذه الحياة بكل ما يتسع له جهده، فيجب على ذي المال أن يجعل للفقير حظاً من ماله، وعلى ذي العلم أن يعلم

(١). الرسائل ج ٤ ص ١١٩-١٢٠ طبعة مصر ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م

(٢). خمسون منها في خمسين نوعاً من الحكمة والحادية والخمسون جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز.

(٣). رسائل ج ٢ ص ١١٩.

أخاه الجاهل، غير أن العلم -كما نراه في رسائل الإخوان- حبس على خاصة المستبصرين من أفراد الطبقة العليا.

ويظهر أن إخوان الصفا في البصرة، وفرع جماعتهم في بغداد كانوا يحيون حياة هادئة وربما كانت نسبة إخوان الصفا إلى القرامطة شبيهة بنسبة أصحاب التعميد الهادئين إلى أتباع (ملك صهيون) الذين ثاروا وأحدثوا حروباً، ودعوا على إعادة التعميد^(١).

وقد ذكرنا المتأخرون أن من إخوان الصفا الذين اشتركوا في تأليف دائرة معارفهم: أبا سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي، وأبا الحسن علي بن هارون الزنجاني، ومحمد بن أحمد النهرجوري، والعوفي، وزيد بن رفاعه^(٢)، وفي أيام ظهور هؤلاء الإخوان كانت الخلافة العباسية قد أظهرت أن تنزل نزولاً تاماً عن سلطتها السياسية لأسرة بني بويه الشيعية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وربما كان هذا الأمر مناسباً لظهور دائرة معارف تجمع بين مذاهب الشيعة المعتزلة وبين ثمرات الفلسفة، وتؤلف منها جميعاً مذهباً يناسب العامة.

(١) جرت عادة المسيحيين واليهود من قبلهم على تعميد من يدخل في دينهم أي غمره في الماء لتطهيره من دنس الوثنية وليكون ذلك إشارة على غفران ذنوبه وشرطاً في اعتباره من جملة المسيحيين، وفي أواخر القرن الثاني من ميلاد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ظهر تعميد الأطفال وبقي كالشاذ في القرون التالية، وكان يؤخر البعض التعميد حتى يقطع شوطاً من حياته ثم يعمد بعد ذلك لمحو ذنوبه، ولما جاء القديس أوغسطين كان أثر التعميد في نظره محو الذنوب التي ارتكبها الإنسان قبله، وكذلك محو الخطيئة الموروثة من خطيئة آدم الأولى عليه السلام، ولو مات الطفل من غير أن يعمد كانت الخطيئة التي ورثها عن أبيه الأول كافية في منعه من دخول مملكة السماء، لذلك يجب تعميد الطفل لمحو الخطيئة الأولى ثم جاء مؤتمر ترنت فقوى نظرية الخطيئة الأولى بتقديره أن خطيئة آدم تنتقل بالوراثة إلى جميع أبنائه ولا يزيلها التعميد.

ثم جاء عصر الإصلاح فلم ينكر كبار المصلحين مثل لوثر وزونجلي تعميد الأطفال، وكان إصلاحهم في جملته رزناً غير عنيف، ولكن ظهر إلى جانب هؤلاء المصلحين المعتدلين حزب متطرف اعتبر لوثر وزونجلي أنصاف مصلحين، هدموا البيت القديم ولم يبنوا مكانه وقد ينس هؤلاء المتطرفون من إصلاح الكنيسة القديمة، فأرادوا أن يبنوا من جديد على أساس التفسير الحرفي للنصوص المقدسة، ومن غير استعانة بالدولة ولا بغيرها من النظم الموجودة وبالجملية أرادوا أن يصلحوا عمل المصلحين، وكان من آرائهم أنهم طعنوا في صحة تعميد الأطفال وقالوا إن التعميد لا يجوز إلا للكبار فطالبوا بإعادة التعميد ولذلك سموا أصحاب التعميد الجديد. (Wiedertauffer أو بالانجليزية Anabaptists) وقد كرههم المصلحون المعتدلون وردوا عليهم لتطرفهم ولهم آراء في علاقة الكنيسة بالدولة وفي الدين والسياسة فنادوا بالمساواة المطلقة وشيوعية الممتلكات وقاموا بثورات وحروب واستولوا على بعض البلاد في ألمانيا ولما راس حركتهم الثورية بروكهولت الذي عرف في التاريخ باسم JOHN OF LEIDEN أعلن أنه خليفة داود واتخذ لنفسه حقوق الملك والسلطة المطلقة ولقب ملك صهيون وادعى ضريباً من الوحي وأباح تعدد الزوجات.

ولهم آراء المسيح فهم متهمون بانكار التجسيد ولهم آراء في واجبات المؤمن إزاء الدولة وفي تقرير حرمان المنزيبين ومقاطعتهم وهؤلاء المتطرفون في حزب الإصلاح، بما أحدثوا من حروب وثورات بالنسبة لكبار المصلحين المعتدلين يشبهون القرامطة بفتنتهم وحروبهم بالنسبة لإخوان الصفا الهادئين وأرجو أن يكون هذا ما يوضح المقارنة التي أرادها المؤلف انظر مادتي BAPTISTS و ANABAPTISTS في دائرة المعارف البريطانية وفي دائرة معارف الدين والأخلاق.

(٢) وفي كتاب نزعة الأزواج وروضة الأفراح للشهرزوري (مصور بمكتبة الجامعة ص ١٧٢) وكتاب تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي (مخطوط بدار الكتب المصرية ص ١٥) تذكر الأسماء مختلفة عن هذا قليلاً ويقال في هذين الكتابين إن الفاظ رسائل إخوان الصفا هي للمقدسي ويؤخذ مما يحكيه عن الإخوان في تاريخ الحكماء أن زيد بن رفاعه صاحب الإخوان واخذ عنهم.

٣- نزعة التلفيق^(١)؛

ويعترف إخوان الصفا أنفسهم بما في مذهبهم من تلفيق، أعني الاقتباس من مختلف المذاهب^(٢)، فهم يريدون أن يجمعوا حكمة جميع الأمم والديانات وأنبياءهم: نوح وإبراهيم، وسقراط وافلاطون وزرادشت وعيسى ومحمد وعلي وهم يجلسون سقراط وحوارييه، كما يجلسون أبناء علي ويعدونهم رجالاً مطهرين، استشهدوا في سبيل العقيدة القائمة على العقل، وهم يرون أن ظاهر الشريعة إنما يصلح للعامة، فهو دواء للنفس المريضة الضعيفة، أما النفوس القوية فغذاؤها النظر الفلسفي العميق^(٣)، والجسم غايته الموت، ومعنى الموت عند عروج نفس الإنسان إلى الحياة الروحية الخالصة^(٤)، وذلك في حق الأشخاص الذين نبههم النظر الفلسفي إبان حياتهم الأرضية من نوم الجهالة، وأيقظهم من رقدة الغفلة، وهم يؤكدون تأكيداً متكرراً بأساطير وخرافات مأخوذة عن متأخري اليونان، وعن اليهود والنصارى، وعن مذاهب الفرس والهنود.

وقد اعتبروا كل شي من الأشياء الزائلة الفانية في هذا العالم صورة أو رمز لشيء آخر في عالم آخر، وقد حاولوا أن يقيموا على أنقاض الدين التقليدي الموروث والآراء الساذجة فلسفة روحية تحوي معارف الإنسانية وجهودها بقدر ما وصل إليه علم إخوان الصفا، والغرض الذي كانوا يرمون إليه من التفلسف هو أن تتشبه النفس بالإله بحسب الطاقة الإنسانية.

وقد أخفى إخوان الصفا آراءهم الانتقادية في رسائلهم بعض الإخفاء، وذلك لأسباب غنية عن البيان، غير أن حملتهم على المجتمع وعلى الأديان الموروثة تتجلى من غير أدنى في رسالة الحيوان والإنسان، وفيها ألبسوا آراءهم ثوباً رمزياً فقالوا على أسنة الحيوانات ما لو جاهر به أحدهم لثارت حوله الشكوك.

٤- العلم

ولما كان إخوان الصفا قد قيسوا من كل المذاهب وعرضوا فلسفتهم من غير مراعاة منهج مقرر في تقسيمها، فمن العسير أن نضع لها صورة شاملة متسقة الأجزاء.. وأيا كان فلا نجد بداً من أن نعرض أهم ما في فلسفتهم من آراء، وإن كانت أجزاء هذا العرض مفككة في بعض الأحيان، وأن نبسطها في نسق^(٥).

يقسم إخوان الصفا ميدان النشاط العقلي إلى: العلوم، والصناعات، والعلم وهو صورة المعلوم في نفس العالم^(٦)، أو هو ضرب من الوجود أسمى وألطف وادنى إلى الوجود المعقول من

(١). جاء في القاموس المحيط: لفق الثوب يلفقه ضم شقة إلى أخرى فخطبهما، واللفق أحد لفتي الملاء، وتلافقوا أي تلاءمت أمورهم ورغماً عن المعنى الجاري لكلمة التلفيق فإنني قد استعملتها هنا، مستنداً لما جاء في القاموس، في معنى الأخذ من مختلف المذاهب وهو ما يعبر عنه بكلمة: EKLEKTIZISMUS.

(٢). يقول إخوان الصفا: وبالجملية ينبغي لإخواننا أيدهم الله تعالى ألا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها (رسائل ج ٤ ص ١٠٥).

(٣). انظر الرسالة الثانية والأربعين في الآراء والديانات ج ٤ ص ٤٦ وانظر أخبار الحكماء للقفطي ص ٦٢ طبعة مصر سنة ١٣٢٦هـ.

(٤). رسائل ج ٣ ص ٥٩. ٢٨٢. ٢٨٣.

(٥). ولا بد لمن يريد أن يفهم كل ما سيقال عن فلسفة إخوان الصفا من قراءة رسائلهم، وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أعين للقارئ بإشاراتي إلى ما يساعد على فهم كلام الكاتب من تلك الرسائل.

(٦). رسائل ج ١ ص ١٩٨. ٢١١. ٣١٧.

الأشياء المادية المتحققة في الخارج، أما الصناعة فهي إخراج الصانع الصورة التي في فكره، ووضعها في الهيولى والعلم موجود بالقوة في نفس المتعلم وهو لا يصير علماً بالفعل إلا بتأثير المعلم وإرشاده، وأنفس العلماء علامة بالفعل^(١)، ولكن من أين أتى العلم للمعلم الأول؟ يذكر إخوان الصفا رأي المتكلمين الذين يقولون بأنه يأخذه عن الوحي^(٢)، أما رأيهم فهو أن للعلم طرقاً أو وسائل مختلفة، ولما كانت النفس في الرتبة الوسطى بين عالم الأجسام وعالم العقول، صار علم الإنسان بالمعلومات من ثلاث طرق^(٣)، فبطريق الحواس تعرف النفوس ما هو أخس من جوهرها بالتأمل العقلي، أو إدراكها لذاتها إدراكاً مباشراً، ومعرفة النفس لذاتها أوثق أنواع المعرفة وأفضلها، وإذا حاول الإنسان أن يذهب المعرفة إلى ما وراء ذلك ألغى نفسه مقيداً من وجوه شتى، لهذا يجب على الإنسان ألا يتفلسف دفعة واحدة في مسائل من قبيل بدء العالم أو قدمه^(٤)، بل يجب عليه أن يبدأ بما هو أسهل، والنفس لا تستطيع الارتقاء في مدارج معرفة الله معرفة بريئة من الشوائب إلا بالزهد والانصراف عن الدنيا وبالأعمال الصالحة.

٥ - الرياضيات

ويعد أن يتلقى المتعلم علوم اللسان والشعر والتاريخ، وهي علوم ليست من علوم الدين، ويعد أن يتلقى علوم الدين ومذاهب الكلام، يشرع في دراسة الفلسفة مبتدئاً بفروع الرياضيات وهنا نجد إخوان الصفا يعالجون كل شيء على طريقة الهنود وأصحاب المذهب الفيثاغورثي الجديد، فيتلاعبون بالأعداد بل بالحروف الهجائية تلاعباً صبيانياً وقد استفادوا فائدة خاصة من أنهم وجدوا عدد حروف الهجاء ثمانية وعشرين حرفاً أي 7×4 ^(١) ويدل أن يسيروا في دراستهم على أساس الواقع المشاهد، فإنهم أطلقوا لخيالهم العنان في جميع العلوم طبقاً لقياسات لغوية ولعلاقات بين الأعداد.

وهم في علم الحساب لا يبحثون في العدد من حيث هو وإنما يبحثون في خصائصه وكذلك لا يحاولون أن يعبروا عن الأشياء تعبيراً رياضياً عددياً بل هم يعللون الأشياء بما يتفق مع نظام الأعداد وعلم العدد علم إلهي، فهو أشرف من المحسوسات، لأن المحسوسات إنما كانت على مثال الأعداد، والمبدأ المطلق لكل وجود مادي أو معنوي هو الواحد، ولذلك فعلم العدد قوام الفلسفة في أولها ووسطها وآخرها.

(١). نفس المصدر

(٢). رسائل ج ١ ص ٢٢٥.

(٣). رسائل ج ٢ ص ٣٣٤، ٣٥١، ٣٥٢.

(٤). إخوان الصفا في قدم العالم رأي خاص: فإن كان المراد بالقدم أنه قد أتى عليه زمان طويل فالقول صحيح وإن كان المراد أنه لم يزل ثابت العين على ما هو عليه الآن فلا، لأن العالم متغير ففيه الكون والفساد، والأجسام الفلكية دائمة الحركة والنقلة. رسائل ج ١ ص ٣٥٨.

(٥). ج ١ ص ٩٤ - ٩٥.

أما الهندسة بأشكالها المنظورة بالعين فهي مجرد وسيلة تسهل فهم الفلسفة على المبتدئين، والحساب وحده هو العلم العقلي الصحيح، ثم إن الهندسة منها حسية موضوعها الخطوط والسطوح، ومنها هندسة عقلية^(١) موضوعها أبعاد الأشياء من طول وعرض وعمق والغاية المقصودة من الحساب هي إرشاد النفوس والتهدي بها من المحسوسات إلى المعقولات.

والهندسة والحساب يؤديان بنا أولاً إلى النظر في الكواكب وهنا نجد عند إخوان الصفا نظريات في التنجيم مخرّفة في الخيال وقد يناقص بعضها بعضاً، وما يكون لنا أن ننتظر شيئاً غير هذا فهم يعتقدون أن النجوم تنبئ بالمستقبل بل هي تحدث أو تؤثر تأثيراً مباشراً في كل ما يقع تحت فلك القمر، والشمس وسعادات الكائنات ومناحسها يأتيان كلاهما من النجوم، فالمشتري والزهرة والشمس يجري بالسعد، وزحل والمريخ والقمر تجري بالنحس، وأما عطارد فممتزج فيه السعادة والنحوسة معاً^(٢) وهو الذي يهب الإنسان العلم والمعرفة خيراً وشرها ولكل كوكب من سائر الكواكب ناحية خاصة يؤثر فيها والإنسان إن لم تعالجه المنية يتعرض لتأثير الأجرام السماوية كلها واحداً واحداً والقمر يساعد على النمو والزيادة وعطارد ينمي العقل ثم يقع الإنسان بعد ذلك تحت تأثير الزهرة والشمس تهبه نعمة البنين والمال والرياسة والرفعة والمريخ يعطيه الشجاعة والأنفة والعزة، وبعد ذلك يتأهب بإرشاد المشتري للرحيل إلى حياته الآخرة.

وذلك بالعبادة ثم يصل إلى السكون والراحة تحت تأثير زحل ولكن أكثر الناس لا تطول أعمارهم أو هم لا يكونون في حالة تهيب لهم استكمال الفضائل الطبيعية في غير اضطراب ولذلك فإن الله يلطف بهم ويبعث إليهم الأنبياء فإن عملوا بما رسموا لهم استطاعوا في الزمن القصير أن يستكملوا فضائل نفوسهم وإن كانوا قصيري الأعمار^(٣).

٦ - المنطق

والمنطق عند إخوان الصفا متصل بالرياضيات فكما أن الرياضيات تساعدنا على التهدي من المحسوسات إلى المعقولات فالمنطق في مكان وسط بين العلم الطبيعي والعلم الإلهي ذلك أن العلم الطبيعي يبحث في الأجسام وعلم الإلهيات يبحث في الصورة المفارقة^(٤).

أما المنطق فهو يبحث في المعاني العقلية كما يبحث في صور المحسوسات في النفس على أن المنطق دون الرياضيات في شأنه وفي موضوعه لأن موضوع الرياضيات ليس شيئاً متوسطاً بين المحسوس والمعقول بل هو جوهر الوجود، على حين أن المنطق يظل مقيداً تقيداً تاماً بالصورة الذهنية المترددة بين المحسوس والمعقول والأشياء أساسها الأعداد، أما الصور والمعاني فأساسها الأشياء المحسوسة.

(١). رسائل ج ١ ص ٥٠.

(٢). رسائل ج ١ ص ٨٢، ج ٢ ص ٣٥٣، ج ٣ ص ٣٧٩، ج ٤ ص ٢٦٠.

(٣). رسائل ج ١ ص ٣٨٧.

(٤). رسائل ج ١ ص ٥٠.

ويبدأ منطق إخوان الصفا إلى الألفاظ الخمسة عند فورفوريوس لفظاً سادساً هو الشخص ومن هذه الألفاظ الستة ثلاث تدل على الأعيان وهي الجنس والنوع والشخص وثلاثة تدل على المعاني وهي: الفصل والخاصة والعرض^(١)، والمقولات العشر أسماء أجناس أولها الجوهر والتسعة الأخرى أعراض له^(٢)، على أنه يوجد إلى جانب التقسيم مناهج منطقة أخرى وهي التحليل والحد والبرهان والتحليل منهج المبتدئين لأنه يعين على معرفة الأمور الجزئية المحسوسة، أما الحد والبرهان فهما أدق وألطف، إذ بهما تعرف الأشياء المعقولة فبالحد تعرف حقيقة الأنواع وبالبرهان تعرف حقيقة الأجناس^(٣) والحواس تعرفنا الوجود المادي، أما حقيقة الأشياء المادية فنصل إليها بالروية والتفكير والمعرفة التي نصل إليها من طريق الحواس قليلة، ونسبتها لما ينتج عنه من المعقولات كنسبة حروف الهجاء لما يتركب عنها من الأسماء^(٤)، والأحكام التي يستخرجها العقل الإنساني من هذه المبادئ العقلية هي أسمى أنواع المعرفة وهي معرفة استنباطية تفرق عن المعرفة التي تستمد من الفطرة أو من الوحي.

٧ - الله والعالم

والعالم كله صادر عن الله الموجود الأعظم المنزه عن الشخصيات وعن الأضداد المادية والمعنوية وذلك بطريق الصدور وإذا عبروا إخوان الصفا أحياناً بالخلق فذلك متابعة لأسلوب أهل الكلام في تعبيرهم ومراتب الصدور هي^(٥):

١. العقل الفعال
 ٢. العقل المنفعل أو النفس الكلية
 ٣. الهيولى الأولى
 ٤. الطبيعة الفاعلة وهي قوة من قوى النفس الكلية
 ٥. الجسم المطلق المسمى الهيولى الثانية
 ٦. عالم الأفلاك
 ٧. عناصر العالم السفلي
 ٨. المعادن والنباتات والحيوان المكونة من هذه العناصر.
- وهذه ماهيات ثمان وهي الله والذات المطلقة هي كل شيء ومع كل شيء تكمل مجموعة الماهيات الأولى التي توازي الأعداد التسعة.
- والعقل والنفس والهيولى الأولى والطبيعية جواهر بسيطة أما الجسم فهو من عالم المركبات

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٣

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٣٢٣

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٢٦ - ٣٤٣ - ٣٤٤

(٤) رسائل ج ١ ص ٣٤٩

(٥) رسائل ج ١ ص ٢٨ - ٢٩

وكل شيء في هذا العالم إما أن يكون هيولى أو صورة أو جوهرًا أو عرضاً والجواهر الأولى هي الهيولى والصورة والأعراض الأولى هي المكان والحركة والزمان، ويمكن أن نضيف إليها، إذا سائرنا مذهب إخوان الصفا، الصوت والضوء والهيولى واحدة وإنما تختلف باختلاف ما يحل فيها من الصور^(١) ويسمى الجوهر أيضاً الصورة المادية المقومة والعرض يسمى الصورة العقلية المتممة^(٢)، ولانجد عند إخوان الصفا كلاماً واضحاً في هذه المسائل، وعلى كل حال فالجوهرية تلتبس في الكلي دون الجزئي والصورة مقدمة على الهيولى وكأنما الصورة الجوهرية طيف يحول بأفعال مخيفة دون معرفة المادة، فهي تسري كما تشاء متنقلة خلال عالم المادة الأدنى وليس ما يدل على وجود أية علاقة في الجوهر بين الهيولى والصورة، فهما منفصلتان في الذهن بل في الخارج. يستطيع القارئ أن يكون لنفسه مما تقدم فكرة عن تاريخ الطبيعة كما رآه إخوان الصفا، وقد مثلهم بعض الباحثين بأنهم داروينيو القرن العاشر الميلادي^(٣) ولا شيء أبعد عن الصواب من هذا الرأي.. نعم كانوا يذهبون إلى أن عوالم الطبيعة تؤلف سلسلة تصاعدية متصلة الحلقات غير أن العلاقة بين هذه العوالم لا تتبني على التركيب الجسمي لكل عام، بل هي تتعين بحسب الصورة الذاتية أو نفس الجواهر، والصورة تسري سرياً خفياً من أدنى الموجودات إلى أعلاها، ومن أعلاها إلى أدناها ولكن ذلك لا يكون بحسب قوانين النشوء، كما أن الصورة لا تتكيف أثناء انتقالها مع الظروف الخارجية بل هي تسري طبقاً لتأثيرات الكواكب، وسريانها في الإنسان على الخصوص يتوقف على سلوكه العملي والنظري أما وضع تاريخ للتطور بالمعنى الحديث لهذه الكلمة فقد كان بعيداً كل البعد عن ذهن إخوان الصفا فهم يصرحون في غير لبس أن الفرس والفيل أشبه بالإنسان من القرد وإن كان جسم القرد أقرب شبيهاً بالإنسان من جسم الفرس أو الفيل والحق أن الجسم في مذهب إخوان الصفا قليل الخطر جداً وموت الجسم عندهم ولادة للروح، والنفس وحدها هي الماهية الفعالة وهي تخلق الجسم لنفسها.

٨ - النفس الإنسانية

نرى مما تقدم أن آراء إخوان الصفا في الطبيعة مشبعة جداً بالمباحث النفسية ولنجعل كلامنا هنا مقصوراً على النفس الإنسانية عي تقع في الرتبة الوسطى بين الموجودات وكما أن العالم إنسام كبير فالإنسان عالم صغير.

والنفس الإنسانية فيض صادر عن النفس الكلية أو نفس العالم، ونفوس أفراد الإنسان تؤلف جوهرًا يمكن أن نسميه الإنسان المطلق أو نفس الإنسانية ونفس الإنسان غائضة في بحر الهيولى ولا بد لها من أن تصير عقلاً بالتدرج وللنفس قوى كثيرة تعينها على بلوغ هذه الغاية

(١). رسائل ج ٢ ص ٦٤.

(٢). رسائل ج ٢ ص ٤٦، ج ١ ص ٣١٩.

(٣). لعله يشير إلى العلامة ديتريشي فله بحث في هذا الموضوع

وأفضلها القوى المفكرة لأنها تؤدي إلى المعرفة والمعرفة لباب حياة النفس.

ونفس الطفل في أول أمرها كصحيفة بيضاء لم ينقش عليها شيء وكل ما تحمله إليها الحواس الخمس تتناوله القوة المتخيلة وتجمعه ومجرى هذه القوة مقدم الدماغ ثم تدفعه إلى القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ، فتميز بعضه عن بعض وتعرف الحق من الباطل، ثم تؤديه إلى الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ والقوة الناطقة تعبر عما في النفس بالألفاظ للسامعين أو تقيدها بصناعة الكتابة فيكون للنفس خمس حواس باطنة تقابل الخمس الظاهرة^(١).

والقوة السامعة مقدمة على القوة الباصرة في الحواس لأن الباصرة مقيدة باللحظة التي تبصر فيها ويشغلها ما تحسه بالفعل في تلك اللحظة أما السامعة فهي تعي ما أحسسته في الماضي وتسمع نغمات الأفلاك المتألفة والسمع والبصر هما الحاستان الروحيتان وفعلهما لا يدخل فيه عنصر الزمان.

وعلى حين أن الإنسان يشارك الحيوان في الحواس الظاهرة نجد خصائص العقل الإنسان تتجلى في التمييز بين الأشياء وفي النطق وفي الصناعة والعقل يحكم على الأفعال وينعتها بالخير أو الشر، وتتجه الإرادة بما يتفق مع هذا الحكم، ويجب أن نرفع من شأن اللغة من حيث قيمتها في المعارف العقلية، والفكرة التي لا نستطيع الإفصاح عنها بعبارة ما بلغة ما، لا يمكن أن تكون موضوعاً للفكر، واللفظ بمثابة الجسد من المعنى، وهذا لا يمكن أن يوجد مستقلاً بذاته^(٢). ولكن يصعب التوفيق بين هذا الرأي في العلاقة بين اللفظ والمعنى وبين يراء أخرى لإخوان الصفا.

٩ - فلسفة الدين

وتعاليم إخوان الصفا في صورتها الأخيرة هي فلسفة للدين غايتها التوفيق بين العلم والحياة بين الفلسفة والدين، والناس في هذا يختلفون اختلافاً بيناً فعامية الناس لا يستطيعون أن يخلصوا عبادتهم لله من علائق الحس، وكما أن نفوس النبات والحيوان دون نفوس العامة، فكذلك نفوس هؤلاء دون نفوس الفلاسفة والأنبياء وهؤلاء في مصاف الملائكة المقربين وإذا بلغت النفس مقامها الأعلى صارت فوق دين العامة الموروث وفوق ما فيه من رسوم وصور حسية. ويجوز أن إخوان الصفا كانوا يعتبرون المسيحية والزرذشتية دينين أقرب إلى الكمال^(٣)، وقد قالوا إن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أرسل إلى قوم بدو أميين يسكنون الصحراء، ولا يدركون ما هي هذه الحياة الدنيا من جمال، ولا يستطيعون إدراك روحانية الحياة الآخرة، وعبارات القرآن بما فيها من صور حسية إنما تتناسب مع فهم أولئك القوم، وينبغي لمن هم أرقى منهم في المعارف أن يؤولوها تأويلاً ينفي عنها الصفة الحسية.

(١). رسائل ج ٢ ص ٣٤٧، ٣٤٩-٣٥٠.

(٢). رسائل ج ١ ص ٣١٨.

(٣). لم أجد في رسائل إخوان الصفا ما يؤيد هذا.

وعند إخوان الصفا أن الحقيقة لا توجد خالصة من الشوائب حتى ولا في ديانات الشعوب الأخرى^(١)، وكانوا يرون أن ثم ديناً عقلياً فوق الأديان جميعاً وقد حاولوا أن يستنبطوا هذا الدين استنباطاً عقلياً وقد جروا على طريقه التثليث أدخلوا بين الله وبين العقل الفعال، الذي هو أول مخلوقاته الناموس الإلهي الذي يشمل كل شيء، وهو وضع محكم لإله رحيم، لا يريد بأحد شراً، ويجاهر إخوان الصفا بأن الاعتقاد بأن الله يغضب ويحنق ويعذب بالنار ونحو ذلك أمور لا يقبلها العقل، ويقولون إن هذه الاعتقادات تؤلم نفوس معتقديها^(٢)، ويرون أن النفس الجاهلة الآثمة تلقى جهنمها في هذه الدنيا، وفي نفس الجسم الذي تعيش فيه والبعث هو مفارقة النفس للجسد، أما القيامة الكبرى في اليوم الآخر فهي مفارقة النفس الكلية للعالم^(٣)، ورجوعها إلى الله، وهذا الرجوع إلى الله هو غاية الأديان جميعاً.

١٠ - مذهبهم في الأخلاق

ومذهب إخوان الصفا في الأخلاق ينزع إلى الروحانية والزهد، وإن كانوا قد اقتبسوا من مختلف المذاهب والإنسان يكون خيراً إذا عمل بحسب طبيعته الحقيقية، والعمل يكون محموداً إذا فعلته النفس حرة مختارة، ويكون فاضلاً إذا صدر عن الرؤية العقلية ثم إن من يعمل بموجب أحكام الناموس الإلهي يكون جزاؤه العروج إلى ملكوت السماوات، ولكن لا بد في هذا من أن تشاق النفس إلى ما فوقها، ولذلك فالمحبة أسمى الفضائل وهي المحبة التي غايتها الفناء في الله المحبوب الأول، وتظهر هذه المحبة في هذه الحياة نفسها على صورة الصبر المشبع بروح التقوى، والرضا عن جميع الخلق، هذا الحب يثلج الصدر ويطلق القلب من عقالة، ويبعث في النفس الرضا عن كل ما في هذه الدنيا وهو في الحياة الآخرة يعرج بالنفس إلى النور الأزلي. لا نعجب بعد هذا أنهم كانوا يبخسون قدر الجسد بخساً عظيماً ويقولون إن الإنسان، على الحقيقة هو النفس، ويجب أن تكون أعظم غايتنا أن نعيش مع سقراط واقفين أنفسنا على العقل ومع المسيح عليه السلام محتبسين إياها على قانون المحبة ولكن يجب أن نعيش بالجسم ونصلح من شأنه لتجد النفس ما ييسر لها كمالها، وإخوان الصفا بهذا الرأي يضعون للكمال مثلاً أعلى يستعيرون مميزات من خصائص الأمم المختلفة، والمثل الأعلى للرجل الكامل الخلق هو: أن يكون فارسي النسب عربي الدين عراقي الآداب عبراني المخبر، مسيحي المنهج، شامي النسك، يوناني العلم، هندي البصيرة، صوفي السيرة، ملكي الأخلاق، رباني الرأي، إلهي المعارف.^(٤)

(١). لعل الكاتب يقصد الديانات التي اتصل ظهورها بالأمم كالإسلام والمسيحية واليهودية وهي تقابل الأديان العقلية.

(٢). يذكر إخوان الصفا الآراء الفاسدة في الرسالة الثانية والأربعين، انظر بنوع خاص ج ٤ ص ٦١.

(٣). رسائل ج ٢ ص ٤٢.

(٤). انظر الرسالة الثانية والعشرين وخصوصاً آخرها ج ٢ ص ٣١٦.

١١ - تأثير رسائل إخوان الصفا

حاول إخوان الصفا أن يوفقوا بين الدين والعلم ولكن هذا لم يرض أهل الدين ولا أهل العلم ذلك أن المتكلمين شنعوا على طريقة إخوان الصفا في تأويلهم للقرآن على غير ظاهره تأويلاً يخرجهم عن المراد منه كما أن رجال الدين المسيحي ينددون اليوم بتفسير الكونت تولستوي للعهد القديم، ثم أن المتشدين في التمسك بمذهب أرسطو نظروا لنزعة إخوان الصفا إلى الأخذ بأراء أفلاطون وفيثاغورث كما ينظر أحد أساتذة الفلسفة الحديثة إلى مذاهب الروحانيين وأصحاب العلوم الخفية ما إليها، غير أن رسائل إخوان الصفا وآرائهم أثرت تأثيراً كبيراً في معظم المثقفين وأنصاف المثقفين وأفصح دليل على هذا ما نصادفه من مخطوطات كثيرة لرسائلهم معظمها حديث العهد، وقد ظهرت آراء إخوان الصفا في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي، كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز أو كما يُسمون، وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفا، على حين كادت فلسفة المدرسة الأرسططاليسية لا تثمر إلا في جو صناعي هياه لها الأمراء.. والإمام الغزالي يرمي بفلسفة إخوان الصفا جانباً ويعدها فلسفة العامة من الناس غير أنه لا يتحرج في أن يقتبس ما فيها من خير^(١)، وهو مدين لفلسفتهم بأكثر مما يعترف به وقد استفاد آخرون من رسائلهم في تأليف الموسوعات ولا يزال لهذه الرسائل تأثير في الشرق الإسلامي، وعبثاً حاول البعض أن يقضي عليها بأن أحرقها في بغداد مع مئات مؤلفات ابن سينا عام ١١٥٠م^(٢).



(١). ارجع إيل كتاب المنقذ من الضلال من ١٣-١٤ طبعة مصر عام ١٣٠٩هـ.

(٢). البحث عبارة عن فصل من كتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام، القاهرة ١٩٣٨ (ص ٩٥ - ١١٣).